حـــول الفن القصصى
في القرآن الـــكريم

أبدأ اليوم بعرض وجهة نظرى فى مسألة من أخطر مسائل بحثى وهى مسألة الأسطورة . وأرجو ألا يزعجنا هذا اللفظ ونقع فى أخطاء وقع فيها غيرنا حين ظن أن معنى الأسطورة الكذب والمين أو الخرافات والأوهام ، فذلك ما لم يقصد إليه القرآن الكريم .

ليست الأسطورة فى حس القرآن الكريم إلا ما سطره الأقدمون من أخبارهم وأقاصيصهم بذلك تنطق آياته وإلى ذلك فطن المفسرون .

قال الله تعالى [وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا .) وقال تعالى (قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين .).

وجاء فى الطبرى ج ٩ ص ١٤٢ (والأساطير جمع أسطر وهو جمع الجمع لأن واحد الأسطر سطر ثم يجمع السطر أسطر وسطور ثم يجمع الأسطر أساطير وأساطر وقد كان بعض أهل العربية يقول واحد الأساطير أسطورة . وإنما عنى المشركون بقولهم أن هذا إلا أساطير الأولون أن هذا القرآن الذى تتلوه علينا يا محمد إلا ما سطره الأولون وكتبوه من أخبار الأمم كأنهم أضافوه إلى أنه أخذ عن بنى آدم وأنه لم يوجهه الله إليه .).

ثم جاء فى الكشاف ج ٢ ص ١٠٣ (أساطير الأولين . ما سطره المتقدمون من نحو الحديث عن رستم واسفنديار جمع أسطار أو أسطورة كأحدوثة) .

وجاء فى المنار ج ٩ ص ٦٥٣ عند تفسيره لآية الأنفال « إن هذا إلا أساطير الأولين » . أى قصصهم وأحاديثهم التى سطرت فى الكتب على علاتها وما هى بوحى من عند الله . قال المبرد فى أساطير هى جمع أسطورة كأرجوحة وأراجيح وأثفية وأثافى وأحدوثة وأحاديث وفى القاموس الأساطير الأحاديث لا نظام لها..

قال المفسرون كان النضر بن الحارث .. كأنهم يعنون أن أخبار القرآن عن الرسل وأقوامهم اشتبهت عليه بقصص أولئك الأمم فقال أنه يستطيع أن يأتى بمثلها فما هى من خير الغيب الدال على أنه وحى من الله . ولعله أول من قال هذه الكلمة فقلده فيها غيره ولم يكونوا يعتقدون أنها أساطير مختلقة وأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الذى افتراها فإنهم لم يكونوا يتهمونه بالكذب كما نقل عن كبار طواغيتهم ومنهم النضر بن الحارث وقد قال

وقد بسمت للوليد الجديد يوم ميلاده وابتسم له اليوم عند الشباب وفى الأفق البعيد تتبدى أنوار العدالة والحق فتنعكس صفحاتها المشرقة على جبين الحياة فتزيدها نوراً على نور ، وتبعث الحضارة بما فيها من قوى روحية سامية ، ذلك لأن الحياة هى فى حقيقتها تلك اللحظات الروحية الرفيعة ؛ والفنون وأنماط المعرفة تملك التعبير الصحيح عن خير ما فى الإنسان من رقة ونبل وإحساس ، وهل حياة المعرفة والفن إلا نوعاً من التضحية والقلق يدفع بصاحبه للبحث وراء المجهول ...

وفى ثنايا الليل يظل صاحبنا باحثاً عن الحكمة ، ناظراً فى دنيا العلم ، مطرقاً مستغرقاً ؛ وهل عادت الروح من جديد تجاه الشرق لتجد عالم الهدوء والاطمئنان أم تبدت حياة الآلة كالحة فى نظرة القلق الذى أجهده طول السهاد !! وأنغام الموسيقى تتهادى فى ضوء القمر ، والزهور الندية ترسل العطر لأبناء الإنسان ، وأذان الفجر يكاد أن ينادى بالصلاة والدعاء ، والمدينة أخذت تتأهب للحياة من جديد ، وجيوش الظلام أخذت تولى هاربة ولكنها لن تعود ...

واليوم تنبعث من جوانب المدينة أنغام الخلود ، وأضواء الشمس تتساقط من خلال الأشجار ، وعبير الأزهار بداية الربيع الساحر ، والأم فرحة بطفلها الذى يستقبل الحياة ، وحفيف الأشجار وهمسات النور المنبعث وأسارير الطبيعة تنبىء عن بداية الفوز ؛ والثغاء يملأ جنبات الوادى ، والرعاة يهدهدون القطيع فرحين مستبشرين ، والوليد الجديد فرحة القلب عند الأم الرؤوم .

عثمان طه شاهين
ليسانسيه فى الفلسفة

تعالى فى ذلك فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . بل كانوا يوهمون العرب أنه اكتتبها وجمعها كما فى آية الفرقان وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . أى ليحفظها »

يجب إذاً ألا تزعجنا هذه اللفظة فنجرى فيها وراء الخيال ونعتقد أنها الأكذوبة أو الخرافة وإنما يجب أن نقف منها عند المدلول الذى فهمه المفسرون والمعنى الذى قصد إليه القرآن .

وأعود فأقول إنى أعرض لهذه المسألة الخطيرة مسألة الأسطورة وآمل أن يتفضل علينا أصحاب العقول الراجحة والقلوب المستنيرة — من الذين يعرفون الدقائق الأدبية ويفقهون المسائل القرآنية — بالمشاركة فى البحث حتى يفطن كل منا إلى حقيقة موقفه إن كان حقاً يحرص على الروح العلمية فى بلدنا العزيز .

إنى لأقدر منذ اللحظة الأولى أنه من الجائز أن أكون قد أخطأت القصد أو ضللت الطريق وأن يكون الأستاذان الفاضلان أحمد بك أمين وأحمد الشايب قد أصابا ولكنى لم أتبين بعد جانب الخطأ أو وجه الإصابة ومن هنا كتبت ما كتبت وآمل أن نصل إلى الحق المبين .

ولعل نقطة الخلاف فيما بينى وبين أستاذى الفاضلين تضيق وتتضح حين نشرح الصنيع الأدبى أو البلاغى فى الأسطورة شرحاً موجزاً ولذا نقول .

الأسطورة كما يعرفها الأدباء فى صنيعهم البلاغى وسيلة قوية فعالة من وسائل تجسيم المعانى وتمثيلها لتتضح وتبين . وهى من هذا الجانب تعتبر أداة من أدوات التعبير يعمدون إليها أحياناً للتعبير عن المعانى الفلسفية أو كل معنى دقيق عميق .

الأسطورة فى هذا الوضع تشبه اللفظة المفردة إلى حد كبير . وإذا كان من حق الأديب أن يعمد إلى المفردات فيحملها من العواطف والمعانى ما يريد فكذلك من حقه فى الأساطير .

وإذا كان الأديب يخرج أحياناً بالألفاظ المفردة عن معانيها الحقيقية إلى أخرى مجازية فكذلك يفعل بالأساطير .

وإذا كان التاريخ الأدبى يدلنا أحياناً على أن هذه المعانى المجازية قد أصبحت حقائق عرفية أو شاع استعمالها حتى ينسى الناس الدلولات الأصلية أو الأولى فكذلك يدلنا فى الأساطير .

وإذا كان الأديب حين يخرج بالألفاظ المفردة عن معانيها الحقيقية يبقى على مادتها فكذلك يفعل بالأساطير إذ نراه يبقى منها على جسم القصة أو هيكل الحكاية . وكل ذلك واضح بين فى الصنيع الأدبى بحيث لا يحتاج منا إلى دليل .

ولعلك تعجب معى حين تعلم أن شيخاً من شيوخنا الأقدمين قد فطن إلى هذا الصنيع الأدبى فى القصص القرآنى قبل أن يفطن إليه أساتذتنا من الجامعيين .

فلقد فطن الرازى إلى هذا الصنيع الأدبى من اعتماد القرآن على الأسطورة عند شرحه لمواقف المشركين .

قال رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » من سورة يونس ما يأتى (الأول . انهم كلما سمعوا شيئاً من القصص قالوا ليس فى هذا الكتاب إلا أساطير الأولين . ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها) .

فنحن نلحظ أن الرازى هنا يفرق بين شيئين .

الأول . هيكل القصة أو جسم الحكاية .

الثانى . ما فى القصة من توجيهات دينية نحو قواعد الدعوة الإسلامية ومبادىء الدين الحنيف .

والرازى يلحظ أن الأمر الأول وهو هيكل القصة أو جسم الحكاية هو الذى أدخل الشبهة على عقول المشركين ومن أجل هذا قالوا عن القرآن إنه أساطير الأولين .

والرازى يرى أن القوم قد جانبوا الحق وبعدوا عن الصواب حين نظروا من القصة إلى هذا الجانب . ذلك لأنه ليس الجانب المقصود من القصة وليس الأمر الذى يقصد إليه القرآن الكريم حين يحدث ويقص .

ويؤكد الرازى هذا الأمر فى مناسبات أخرى حين يجعل أحياناً كلمة « بالحق » التى ترد كثيراً فى القرآن بعد بعض القصص وصفاً لما فى القصة من توجيهات دينية . فهو مثلا يقول عند تفسيره لقوله تعالى « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت

به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » ما يأتى (أما الحق فهو إشارة إلى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة .) .

ويقول عند تفسيره لقوله تعالى «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين » ما يأتى (اعلم أن قوله تلك إشارة إلى القصص التى ذكرها ... أما قوله بالحق ففيه وجوه . أحدها أن المراد من ذكر هذه القصص أن يعتبر بها محمد صلى الله عليه وسلم وتعتبر بها أمته فى احتمال الشدائد فى الجهاد كما احتملها المؤمنون فى الأمم المتقدمة) .

وإذا وصلنا إلى هذه النقطة وعرفنا أن الصنيع الأدبى أو البلاغى فى الأسطورة هو الأمر الذى فطن إليه الرازى وقال بوجوده كان علينا أن نرصد الفوائد التى نجنيها أو المضار التى نزيلها حين نتابع الرازى فى رأيه ونفسر بعض القصص القرآنى هذا التفسير البلاغى أو الدينى القديم .

أما الفوائد فهى رد عادية المستشرقين والملاحدة حين يوجهون الطعن إلى النبى والقرآن الكريم . ذلك لأنهم يقولون بما قال به المشركون من قبل من أن القرآن قد جاء بالأساطير . ولعل هؤلاء أقوى سنداً وأثبت حجة حين يوردون الدليل تلو الدليل على ماورد فى القرآن من أساطير .

لن نقول لهؤلاء إلا ما قاله الرازى لأسلافهم منذ قرون . ولن نطلب إليهم إلا أن يفرقوا بين أمرين جسم القصة أو هيكل الحكاية وما فيها من توجيهات دينية نحو الدعوة الإسلامية ومبادىء الدين الحنيف . ولن نقول لهم إلا أن الأمر الأول كان وسيلة لا غاية وأنها وسيلة غير مقصودة لذاتها من القرآن الكريم . ولن نقول لهم إلا أن الأمر الثانى هو المقصود بالذات وأنه الحق الذى ليس بعده حق فيما يخص دعوتنا الإسلامية وشرعنا الحنيف .

إن تمسكنا بالرأى الذى يقول أن جسم القصة أو هيكل الحكاية حق ثابت بعد أن ثبت لدى العلماء الدارسين أنها من الأساطير أمر يعرض القرآن لشر عظيم .

وإن قولنا بالتفرقة بين الأمرين جسم القصة وما فيها من توجيهات هو الذى يتفق والصنيع الأدبى وهو الذى يرد عن القرآن عادية الملاحدة والمستشرقين .

هذه أخطر نقطة فيما بينى وبين أستاذى من خلاف . أعرضها عليكم وعلى قراء مجلتكم وعلى الرأى العلمى . وإنى ليدفعنى إلى القول بهذا الرأى حرصى أولا على سلامة القرآن الكريم من عبث الملاحدة والمستشرقين . وحرصى ثانياً على ألا نتخلف فى الدراسة الأدبية فنعجز عن فهم أبلغ نص نعتز به وهو قرآننا الكريم .

إن فهمى الأدبى لما فى القرآن من قصص يعتمد أحياناً على أساس من الأساطير يقوم على أساسين كما رأيت .

الأول تلك اللفتة الكريمة من الرازى وهى لفتة أدبية نحرص عليها ونعتز أن صدرت عن شيخ من شيوخنا الأقدمين .

الثانى ذلك الصنيع الأدبى الذى يجرى العمل فى القصة الأسطورية منذ القديم .

وليس فى هذا وذاك ما يضر الدين أو يؤذى قرآننا الكريم

إن المسألة أخطر وأعمق من أن يتناولها غير الباحثين الذين يفطنون إلى الدقائق الأدبية ويفقهون المسائل القرآنية وإنى لآمل أن يوفقكم الله إلى تسديد خطوات الباحثين فنحل تلك المشكلة الجامعية التى يتخوف فيها بعض رجال الجامعة من بعض رجال الدين

محمد احمد خلف الله
كلية الآداب — جامعة فؤاد

جامعة فاروق الأول

كلية العلوم — إعلان

تعلن جامعة فاروق الأول — كلية العلوم — عن وجود درجات خالية اوظائف محضرين من الدرجة الثامنة ويشترط فى الطالب أن يكون حاصلا على شهادة إتمام الدراسة الثانوية القسم الخاص (شعبة العلوم أو الرياضة) أو دبلوم المدارس الصناعية أو دبلوم المدارس الزراعية .

وترسل الطلبات باسم عميد كلية العلوم بمحرم بك فى ميعاد غايته ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٧ . ٨١٤٤